ديوان العرب

في الأدبِ العربيِّ..

# قَصَصُ الحَيَوانِ

## رَمْزِيَّةٌ تَسْتَهْدِفُ الإِصْلاحَ الاجْتِماعِيَّ وَالأَخْلاقِيَّ

**وَضَعَتْ كُلُّ الشُّعوبِ القَديمَةِ – تَقْريبًا – حِكاياتٍ شَعْبِيَّةً أَبْطالُها شَخْصِيّاتٌ حَيَوانِيَّةٌ ذاتُ صِفاتٍ آدَمِيَّةٍ، فَصُوِّرَ الثَّعْلَبُ – مَثَلًا – عَلى أَنَّهُ ماكِرٌ، وَالبومَةُ عَلى أَنَّها عاقِلَةٌ في بَعْضِ الثَّقافاتِ وَنَذيرُ شُؤْمٍ في ثَقافاتٍ أُخْرى، وهكذا. وَبِمُرورِ الوَقْتِ بَدَأَ النّاسُ يَحْكونَ الحِكاياتِ لِتَعْليمِ الأَخْلاقِ الحَميدَةِ، وَتُنْسَبُ مُعْظَمُ الحِكاياتِ اليونانِيَّةِ إِلى «يَعْسوب»، الذي اكْتَسَبَ شُهْرَتَهُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلى قَصِّ هذِهِ الحِكاياتِ المُمْتَلِئَةِ حِكْمَةً وَذَكاءً وَفُكاهَةً عَلى لِسانِ الحَيَواناتِ، في شَكْلِ أَساطيرَ شَعْبِيَّةٍ تَحْتَلُّ فيها الحَيَواناتُ مُقَدِّمَةَ الصّورَةِ بِوَصْفِها شَخْصِيّاتٍ رَئيسَةً أَوْ شَريكًا مُهِمًّا في تَطَوُّرِ الأَحْداثِ؛ حَيْثُ تُعَدُّ قِصَّةُ الحَيَوانِ لَوْنًا مِنَ القَصَصِ الرَّمْزِيِّ يَتَضَمَّنُ مَعانِيَ أَخْلاقِيَّةً.**

لَكِنْ هذِهِ الحِكاياتُ في الأَدَبِ العَرَبِيِّ أَخَذَتْ طابَعًا أَدَبِيًّا بَليغًا لا يَكادُ يَكونُ مَوْجودًا في اللُّغاتِ الأُخْرى، التي رُبَّما يَكونُ أَدَبُ القَصَصِ الحَيَوانِيِّ قَدِ اقْتَصَرَ فيها عَلى مُخاطَبَةِ الصِّغارِ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُ في العَرَبِيَّةِ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلى هذِهِ الفِئَةِ العُمْرِيَّةِ، كَما أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلى لَوْنٍ واحِدٍ فَقَطْ مِنْ أَلْوانِ الكِتابَةِ، بَلْ تَوَزَّعَ بَيْنَ القِصَّةِ وَالشِّعْرِ وَالمَثَلِ.

وَيَمْلِكُ العَرَبُ أَضْخَمَ نِتاجٍ أَدَبِيٍّ يَتَعَلَّقُ بِقَصَصِ الحَيَوانِ، وَقَدْ ظَهَرَ أَدَبُ قَصَصِ الحَيَوانِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عِنْدَ الإِنْسانِ المُتَحَضِّرِ في بِلادِ وادي الرّافِدَيْنِ، وَقَدِ امْتَدَّ أَثَرُ هذا الأَدَبِ إِلى الحَضارَةِ اليونانِيَّةِ وَغَيْرِها مِنَ الحَضاراتِ، كَما امْتَدَّ أَثَرُ العَرَبِ إِلى الحَضارَةِ الأوروبِيَّةِ في القُرونِ الوُسْطى، فَأَضافوا ما أَخَذوهُ إِلى أَساتِذَةِ هذا الفَنِّ في لُغاتِهِم.

وَيُعَدُّ ابْنُ المُقَفَّعِ إِمامَ هذا الفَنِّ وَرائِدَهُ في الأَدَبِ العَرَبِيِّ الإِسْلامِيِّ؛ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَلَ هذا الفَنَّ القَصَصِيَّ مِنْ مَرْحَلَتِهِ الشَّفاهِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ عِنْدَ العَرَبِ إِلى مَرْحَلَةِ التَّدْوينِ، مِنْ خِلالِ تَرْجَمَتِهِ كِتابَ «كَليلَةَ وَدِمْنَةَ» الذي أَثَّرَ تَأْثيرًا كَبيرًا في الفَنِّ العالَمِيِّ. وَحَذا حَذْوَ ابْنِ المُقَفَّعِ غَيْرُ واحِدٍ مِنَ الكُتّابِ، فَنَسَجوا عَلى مِنْوالِهِ أَوْ نَظَموا كِتابَهُ شِعْرًا بَعْدَ أَنْ أَدْرَكوا أَهَمِّيَّةَ ما قامَ بِهِ، وَمِنْهُم أَبانُ بْنُ عَبْدِ الحَميدِ اللّاحِقِيُّ وَسَهْلُ بْنُ هارونَ وَعَلِيُّ بْنُ داوُدَ وَأَبو العَلاءِ المَعَرِّيُّ. وَلَعَلَّ مِنْ بَيْنِ مُؤَلَّفاتِ هؤُلاءِ الأَعْلامِ ما هُوَ تَرْجَمَةٌ عَنِ الفارِسِيَّةِ أَوِ الهِنْدِيَّةِ، إِذْ إِنَّ كَثيرًا مِنْهُمْ مِنْ أَصْلٍ فارِسِيٍّ وَيُتْقِنُ لُغَةَ قَوْمِهِ.



وَمِنْ قَصَصِ الحَيَوانِ في الأَدَبِ العَرَبِيِّ غَيْرِ المَجْموعِ في كِتابٍ واحِدٍ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ «خُرافاتُ الأَمْثالِ»، وَقَدْ رَوَتْ كُتُبُ المَصادِرِ طائِفَةً مِنْها، وَهِيَ لا تَخْتَلِفُ عَنْ أَمْثالِ كَليلَةَ وَدِمْنَةَ سِوى أَنَّها رُوِيَتْ مُفْرَدَةً في سِياقٍ أَوْ مَوْقِفٍ مُعَيَّنٍ، وَتُعَدُّ ضَرْبًا مِنَ التَّمْثيلِ الرَّمْزِيِّ أَوِ الكِنائِيِّ الذي يَتَّضِحُ مَعْناهُ بَعْدَ سَرْدِهِ سَرْدًا تَمْثيلِيًّا كامِلًا، أَيْ بِصورَةِ المَثَلِ القَصَصِيِّ.

وَلَعَلَّ ما يَلْفِتُ النَّظَرَ في هذا الفَنِّ الأَدَبِيِّ هُوَ المَغْزى الرَّمْزِيُّ الذي يَنْطَوي عَلَيْهِ القَصَصُ وَتَشِفُّ عَنْهُ الأَحْداثُ؛ إِذْ إِنَّ ظاهِرَهُ لَهْوٌ وَباطِنَهُ حِكْمَةٌ، بِحَسَبِ تَعْبيرِ ابْنِ المُقَفَّعِ. وَمَضْمونُ الحِكْمَةِ يَتَمَثَّلُ في تَحْقيقِ الغايَةِ التي يَرْمي إِلَيْها كاتِبُها، فَقَدْ تَكونُ تَرْبَوِيَّةً تَعْليمِيَّةً تَسْتَهْدِفُ الإِصْلاحَ الاجْتِماعِيَّ وَالأَخْلاقِيَّ مِنْ خِلالِ نَقْدِ بَعْضِ العاداتِ وَالتَّقاليدِ، أَوْ تَأْكيدِ قِيَمٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ كَشْفِ سُلوكٍ ما. وَمِنْ ذَلِكَ المَثَلُ الذي رَواهُ المَيْدانِيُّ وَهُوَ: «كَيْفَ أُعاوِدُكَ وَهذا أَثَرُ فَأْسِكَ»، وَيُضْرَبُ بِمَنْ لا يَفي بِالعَهْدِ في قِصَّةٍ يَتَجَلّى فيها غَدْرُ الإِنْسانِ وَوَفاءُ الحَيَوانِ.



وَقَدْ تَكونُ الغايَةُ التي يَرْتَئيها الكاتِبُ سِياسِيَّةً، أَوْ مَزيجًا مِنَ السِّياسَةِ وَالاجْتِماعِ وَهُوَ الأَعَمُّ الأَغْلَبُ. إِذْ إِصْلاحُ المُجْتَمَعِ وَالرُّقِيُّ بِهِ يُؤَدّي إِلى تَقْويمِ سُلوكِ الحاكِمِ وَالمَحْكومِ مَعًا عَلى نَحْوٍ تُراعى فيهِ الحُقوقُ وَالواجِباتُ.

وَقَدْ كانَتِ الغايَةُ أَوِ الوَظيفَةُ السِّياسِيَّةُ ماثِلَةً في ذِهْنِ القُدَماءِ، فَصَنَّفوا قَصَصَ الحَيَوانِ ضِمْنَ عِلْمِ تَدْبيرِ المُلْكِ وَالسِّياسَةِ، أَوِ السِّياسَةِ المُلوكِيَّةِ أَوِ السُّلْطانِيَّةِ. وَكَذَلِكَ أَلْمَحَ كُتّابُ هذا الفَنِّ إِلى هذِهِ الغايَةِ في مُقَدِّماتِ كُتُبِهِمْ أَوْ مَضْمونِها مُسْتَعْصِمينَ بِالحَيَوانِ سِتارًا لِلنَّقْدِ السِّياسِيِّ.

وَقَدْ رَأى بَعْضُ الباحِثينَ أَنَّ نَشْأَةَ قَصَصِ الحَيَوانِ تَرْتَبِطُ أَصْلًا بِالسِّياسَةِ، وَأَنَّهُ يَنْشَأُ في عُهودِ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدادِ وَالقَهْرِ حينَما يَكونُ التَّصْريحُ سَبَبًا في إِثارَةِ غَضَبِ المُلوكِ وَحَنَقِهِمْ. وَقَدْ يَسْتَدِلّونَ عَلى ذَلِكَ بِأَنَّ أَشْهَرَ كُتّابِ قَصَصِ الحَيَوانِ كانوا مِنَ العَبيدِ وَالأَرِقّاءِ، أَيْ مِنَ المُسْتَضْعَفينَ المَقْهورينَ.

بَيْدَ أَنَّهُ لَيْسَ شَرْطًا أَنْ تَكونَ عُهودُ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدادِ سَبَبًا في وُجودِ قَصَصِ الحَيَوانِ؛ إِذْ إِنَّ كَثيرًا مِنْهُ إِنَّما وُضِعَ لِلتَّسْلِيَةِ وَالإِمْتاعِ وَلِلْمَوْعِظَةِ الأَخْلاقِيَّةِ المُجَرَّدَةِ، أَوْ لِهَدَفٍ تَرْبَوِيٍّ تَعْليمِيٍّ لا عَلاقَةَ لَهُ بِالسِّياسَةِ، وَيُرادِفُ ذَلِكَ البُعْدُ عَنْ حِدَّةِ الوَعْظِ المُباشِرِ وَصُعوبَتِهِ عَلى النَّفْسِ التي تَشْعُرُ بِالاسْتِعْلاءِ وَالفَوْقِيَّةِ مِنْ قِبَلِ النّاصِحِ.